حين ساعدنا الحرب لتعبر للمغتربة ميس الريم قرفول

سلطة خطاب الواقعية

احمد الشيخاوي
المغرب

لحدّ الآن ومذ نشأته الأولى، وضمن حدود رؤية شمولية له، راوح الأدب العربي بين عارضتين بارزتين ذروة في الندية والتضاد،وإذا ما خصصنا جنس الشعر بالقول، وجدناه إمّا واقعية متمرّدة على المدارس الرومانسية ، أو العكس، تماما وكمالا،حلْمية سانحة لشطحات المخيال وَمتيحة لمسافات التنفس والتحرر الذهني، كضرب من بعث لما يعتقد أنّه تمّ تخطيه وحصل اجتراره وتجاوزه، وهو تعاقب لاهث ومحموم وممتد في زمن الولادات الجديد لمعاناة غير مسبوقة وإن تشابهت أو تماهت مع ظلال الذاكرة،و مناوبة ــ إذا شئنا ــ مسايرة لخطى عبورنا الإنساني والوجودي ككل.

بما العملية في أفضل حالاتها،صياغات للنفور من عزلة قاهرة باتجاهات تجريبية ضامنة للتكاملات والامتداد.

مفاضلات ابداعية

تتعالى الأصوات الشعرية في راهننا ،من كلا الطّرفين، وإن كنت لا أستسيغ المفاضلات الإبداعية في نهوضها على ربط فعل البوح بفسيولوجية فاصلة بن ميسم النوعين،وتتصاعد هذه الأصوات أفقيا وعموديا، كي تنسج من تفاصيل الميداني واليومي،هلاميات كلامية على مقاس ما يتسربل به الانتماء من أكفان، ومرثاة وقيامات صغرى، حتّمت أخذ القسط الأوفر والحظ الأقصى من دماء المهج، قبل ما به تجود الأنامل مجابهة ومعارضة لأخطاء عالم بات يتجاوزنا بما يتنافى و خشوعنا الملائكي إذ آثر معظمنا، أن يرتمي أوغل ما يكون في جغرافية المتاهة المقنّعة ،محاولا عبثا،من خلالها، مواراة عبوره الشيطاني السّلبي المدمّر والدال على استذئاب تغطّيه صور الآدمية الزائفة.

والأكيد أنّ مثل هذه الأصوات التي هي في بداية مسار ما تمّت الإشارة إليه ،أو بالأحرى ،من حيث تموقعها في أرض تشكّل أولى ملامح الوعي الذاتي بنظير تلك تحدّيات تمنح الشعرية العربية ريادتها ومنزلتها العالمية اللائقة، هي، أي تلك المشاريع الكتابية، من الندرة بمكان، ومقلّة وتكاد تكون تحت سقف ما يترجم القران الأسطوري ما بين جرأة وسيمولوجية الطّرح القادر على تلبية أغراض الكتابة النابضة بها معلّقات التّغني بشتى معاني مناطحة الأنضج والأدنى من الاكتمال في بحبوحة الانتماء إلى شجرة الإنسانية كأولوية وشرط أساس لتجديد ومعاودة تطهير النوع البشري كأشدّ وأبلغ ما تتمّ زرع إيجابيته في رحم العالم بغية تحصيل هجعة كونية لصالح الإنسان وسائر ما ينشدّ إليه من عناصر والجة في دوامة إنتاج كهذا استقرار وفوقية .

ميس الريم قرفول

من هنا وجبت الإشادة بالتجارب الحديثة المكرسة لبعض من وجوه هذا الطرح، على سبيل المثال لا الحصر، ديوان " حين ساعدنا الحرب على العبور" لمبدعته السورية ميس الرّيم قرنفول،الصادر حديثا عن دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر،دمشق/سوريا.

بحيث تطالعنا هذه الشاعرة الواعدة، عبر هذا المنجز الوارف بمجاورته لمعنى المفردة البسيطة العميقة في آن،بل وإقامتها فيه كثيرا من الأحيان، داخل إطار تبنّي القصيدة الومضة، المثقلة بالحمولة الهذيانية في انتصافها للإنسان المجروح في هويته والمطعون في انتمائه.

دفق تعبيري يغزل وبكثافة مشهدية الجنائزية ،ويلوّن بياضات الحكي بنثريات قزحية تعكس عمق الرؤى في محاصرة الذات والآخر والوجود.

وهو استطلاع يقودنا إلى اقتراح الاقتباسات التالية، والتي تنهل من ذات الدلالة الدامغة بها العتبة الواسمة للمنجز في عمومه، الاستغراق في شعرية الذاكرة بأسلوب سلس إبرازا لضغوطات ذاتية الاغتراب في علائقها بإملاءات الحنين إلى الجذر والمنبت الذي مزّقته حرب طاحنة لم تك متوقعة بتاتا.

تقول ميس مغرّدة على غصن الطعنة:

[وامتلأ صدرها بالدم
تنام قربي الآن
أنا أغفو
وهي تحفر الحلمَ بأسنانها].

.....

[أشعر بالجوع لكني لم أعد
أشعر بالروائح
وفي رأسي مسننات الحرب
إنه الضباب].

.....

[كيف تمرّ في حلمي بهذه
البساطة
في المرّة القادمة سأجعلك تتعثر
بالوسادة حتّى
تقع على وجهي].

.....

[كلّ طريق حبّ يوصل إلى عينيك
مرّ بالمدن
الخربة
عيناك تشبهان بيتا مهجورا في
حمص
دمعتك مهاجر
احتضانك ليس صنعةً من
قصب].

.....

[تركت طاسات الدم تلوّن عينيّ
وتزيد اسودادهما
كالأخضر في الليل يحترق
ويحترق
البارحة اختلّيتُ
كما العالم وتأرجحتُ
كما الأغنية].

.....

[هل ترى تلك الشجرة
كان فمها
عصفوراً
مفتوحا ومرتعشاً لم يلمسه أحد
وطار].

.....

[في بيوتنا القديمة
كانوا يطحنوننا مع العاطفة
كم يُطحنُ حبُّ السّماق
لهذا ترانا حُمْرا متورّدين].

.....

[في أيام العزاء شربنا الكثير من
القهوة المرّة
كانت لذيذة
وبعد سبعة أيام أغلقنا المظلات
لموسم قادم
وهاجرنا.].

.....

[وبات يثقب الغيوم
كي ينزل الزبدّ خناجر
والصّرخات نشواتٌ أقحوان غاف
والنهرُ
طريقه الذي لم يسلكه
مثل المرآة].

.....

[أكتب عن الهشاشة
أكتب ولا تسمعني صوتك].

.....

[قال لي أبي:
يا نجمة
أطفأني ورحل].

تأسيسا على ما تقدّم، يمكننا الجزم بأنّا إزاء تجربة ناضجة تعكس مدى جاهزية واستعداد الذات الإبداعية للتجاوب والتصالح في شموليته.

بالتالي فهي ذات منسجمة مع بقية المكونات ،وهو وعي إنما ينبثق من خلفية اتقاد حس الانتماء و الوفاء النادر للقصيدة حدّ الارتقاء بها فوق شتّى تحديات الآني وإكراهاته.

إنثيالات هامسة ومدغدغة بتجليات اغتراب الذات،ومشرعة على آفاق ابتكار المعاني الزئبقية وفق ثقافة توبّخ هذا العالم الممعن في تشويه آدميتنا وخلع سحنة الطفولة والملائكية عن المكان الأصل الذي سجّل أولى صرخاتنا في هذه الحياة.

تنبض العتبة بدوال عدّة ،في اعتقادي ،لربما اختزلت جلّ أغراض الأضمومة ،وألهمتنا في عصارة البعض من جوانبها الرّسالية في انخطافها بمحطات شرف الانتساب إلى شجرة الإنسانية ،ومن ثم الانسكاب اللاواعي مع انسيابية تياراتها وإن هبّت ضدا ومُراوغة،قصد ما يشبه مزاولة طقوس الفلكلورية المتغزّلة وإن ثرثرة ودندنة حتّى، بالمحذوف أو المفقود من إنسانيتنا بحدّ ذاتها.

قفص الاتهام

ففي النهاية ،يوضع الكل في قفص الاتهام، لا أحد بريء قد يصدق عليه دم يوسف، الدم هاهنا من الجميع وللجميع أيضا،مسلّما بشكل أو بآخر لما جنته أيدينا نحن البشر لا أكثر.

ثمّة تلميح إلى ما يجعل الكلّ متورّطا/حين ساعدنا الحرب لتعبر،وهي دلالة تنهض على استعارة كلّية تستقبح خطيئة المشترك واشتراكية الخطيئة.

إنّ صناع هذا الدمار وكل هذا الموت ،انتهاء،هم من طينتنا،هؤلاء المارقين من صلبنا مهما تبرئنا منهم،مع كامل الأسف.

ولا يفوت شاعرتنا ،حتّى وهي في غمرة سردية دامية تكشف الستار عن مشاهد الجنائزية والدمار، لا يفوتها أن تضغط أزرار الحبّ بكلّ تلويناته،وتلوك تيمة العاطفي في أكثر من مفصل حساس، كأنما تومئ إلى مكمن الخلل.

إنه انفلات ممسوس بمزيج وخلطة من أحاسيس الغربة والعزلة والانتماء، وانكفاء شعري على الخطاب الواقعي إذ يقلّب الحرف والمعنى ضمن اشتراطات القصيدة الوامضة الناطقة بحرفية ،والمغرقة في نهج التكثيفات والمفارقات.

كون البشر لمّا غيّبوا عن عالمهم، مثل هذا المنقب النبيل، إحساسا وسلوكا، وغالبا ما اصطنعوه ،نالوا بعض ما يستحقون وأكثر.

وختاما، لا مراء في القول أنّا ونحن إزاء هذه الوليمة الشعرية الدّسمة المستفزّة بعوالمها التي تنهش الأنساق وتخترقها إلى ما يعرّي ويبرز بالتمام، عروبتنا بل وإنسانيتنا النازفة، إنّما نتنفّس لحظات لذة القول الشعري،ونعيش ملء كؤوس الثمالة،غواية الحكي الجنائزي المعتّق أحيانا بعثرات وجدانية مولّدة لرعشة التلقّي الحقيقية، وفق أسلوبية تجمع ما بين بساطة المفردة وعمقها،مثلما تضيء خارطة ما بعد صدى الصوت الأنوثيّ المخملي الموجوع والمنصت لنكزات الهشّ والمعطّل والعابر في علائقه بالغائية التي من المفترض أن تفجّرها الممارسة الإبداعية في الذات والغيرية والعالم.

غلاف الديوان

أشجار خريف موحش للشاعر سعد ياسين يوسف

الرمز الخاص والتشكّل الدلالي

خضير درويش
بغداد

في البدء لابد من تأكيد ما اتفقت عليه مع من ذهب إلى تسمية الشاعر (د. سعد ياسين يوسف) بـ (شاعر الأشجار) وهذا ما ذكرتهُ في دراستي النقدية عن مجموعته (الأشجار لا تغادر أعشاشها) في نظرة إحصائية وجدتُ فيها أن لفظ الأشجار قد شكل أغلب عنوانات مجموعته الشعرية ونصوصها ، وهنا أقول وأنا أقرأ نقدياً هذه المجموعة (أشجار خريف موحش) أن الشاعر استطاع أن ينقل الأشجار من فضائها العام المألوف ويُحيلها رمزاً خاصاً يحمله الدلالات التي أراد.

خريف موحش

أما عنوان هذه المجموعة (أشجار خريف موحش) فأرى أن أقول أن الشاعر ذهب فيه إلى توظيف العنصر النباتي من الطبيعة ممثلا بالأشجار فقرنهُ بالمستوى الزماني ممثلا بفصل الخريف ، ليتسنى له إيراد اللفظ الثالث المكون للعنوان (موحش) لتحقق الدلالة الرمزية التي أرادها الشاعر في هذا العنوان ، ولكي تتضح دلالة هذا التشكيل الرمزي نرى أن نضع مقابلاً لهذا العنوان العنوان الآتي (أشجار ربيع مؤنس) وبهذا نُشير إلى أشجار الربيع العربي المزعوم الذي لم ير فيه الشاعر إلا خريفاً موحشاً بالظلمة والدماء والموت فاستحالت تلك الأشجار بربيعها المزعوم (أشجار خريف موحش)

النص

يبتدئ الشاعر نصه بقوله:

عندَ ضياء
يُوصفُ فجرا
وصلنا كتفَ كتابِ البحر

في هذا الابتداءَ يعتمد الشاعر المستوى الزمني أساساً ليتواءم مع التغيرات والاستحالات الجديدة المرتقبة في زمن جديد يحمل فجراً جديدا ، إنها رحلة تمثل مرحلة انتقال وارتحال إلى حال جديد آخر، وهو تشكيل استعاري منح فيه الشاعر الكتاب كتفا بعد أن قرنهُ بالبحر إضافياً ، وكتف الكتاب تشكيل رمزي يشير إلى تمامه واكتماله ، وحين قرن الشاعر الكتاب بالبحر بقوله (كتاب البحر) فانه ضمّنَ هذا التشكيل دلالة رامزة أيضا تشي بانتهاء الرحلة وبداية الوصول ، لكنها الرحلة القاتلة والوصول المميت ، وهذا ما يصفه الشاعر بقوله:

نثارُ زوارقنا يطفو خشباً أدماهُ
الموج
رؤوس الأطفال المذبوحين
بنهم نبي كاذب
عيوناً ترنو... أبعدَ من مملكة
الضوء

لقد استحال الضياء المزعوم ظلاماً دامساً والصفاء المُنتظر عاصفةً هوجاء لتمعن في تحطيم تلك الزوارق وتجعلها كما يقول تطفو خشباً أدماهُ الموج .

والشاعر بهذا التشكيل الاستعاري ، خلع بعضاً مما عند الإنسان ممثلاً بالدم على الزوارق ممثلةً بالخشب ، لكي يستطيع أن يُحمّل تشكيله الشعري دلالة رامزة تشي بخيبة تلك الرحلة وخسارتها الفادحة ، وهاهم الأطفال يحلون في مقدمة تلك الخسارات ، فهم قد ذُبحوا كما يقول: بنهم نبي كاذب وهو تشكيل رامز أشار فيه الشاعر إلى من تجلبب بجلباب الدين وهو يحمل السكين ، لكن عيون الأطفال المذبوحين كانت مازالت تنظر بعيون الأمل إلى ماهو أبعد من مملكة الضوء المزعومة على الرغم من أن أقلامهم الجميلة الملونة بالأمل واستشراف المستقبل البهي قد أثكلتها سكينُ ذلك النبي الكاذب فشحبت ألوانها.

ثم يذهب الشاعر صوب الطبيعة ليوظفها في تشكيلاته الشعرية فيقول: اتصالاً بما سبق:

صوراً للنخل الواقفِ
ثملاً فوقَ الجَرف
يلوحُ لضفاف أخَرى
فراشات فقدتْ ضوءَ اللونِ
كتفُ الشاطئ يبكي
أعشاشَ نوارسه

هنا يوظف الشاعر العنصر النباتي من الطبيعة مُمَثلاً بالنخل العراقي بدلالته الرامزة التي قصدها حين رسم له صورة حسية بصرية متحركة إذ جعله يترنح فوق شواطئ الأنهار بعد أن أنسنهُ ليجعله أيضاً كما يقول: يلوحُ لضفاف أخرى.

لقد أحال الشاعر النخل إنساناً بأيد ملوحة لضفاف أخرى غير هذي الضفاف التي حدثت فوق رمالها تلك الخسارات الفادحة.

ثم يذهب إلى العنصر الحيواني في الطبيعة ممثلاً بالفراشات الجميلة التي شملتها تلك الخسارات ففقدت بريقها وألوانها الزاهية ، ويذهب ليسجل خسارة أخرى هي خسارة الشواطئ لنوارسها ، فهو قد أنسن الشاطئ إذ جعلهُ يبكي أعشاشَ نوارسه التي فقدها ، وهو بعد أن خلع عليه فعل البكاء ذهب ليخلع عليه فعلاً إنسانياً آخر حين جعله يتكلم ليعلن احتجاجه ورفضه لما آلت إليه الأحوال إذ يقول:

ويتمتمُ
ربيعٌ بخسٌ هذا
من دفعت
يماماتُ المعجزةِ
حناجرَها ثمناً لغنائه

هذه هي صورة الربيع التي رسمتها ريشة الشاطئ المفجوع بنوارسه.

طيور جميلة

إنهُ ربيع بلا زقزقة العصافير ومن دون تغريد البلابل لقد طالت يدُ تلك الخسارات هذه الطيور الجميلة فسلب هذه الربيع المزعوم حناجرها ليصادر صوتها أملاً في الغناء بحناجرها ، وهو لا يعلم بأنه إنما استحال بذلك خريفاً موحشاً بلا غناء ، لذا يرتفع صوت الشاعر فيقول:

سعاةُ بريدِ الموت
مازالوا
بمعاطفَ غيمٍ أسود
رفعوا ساريةً
أدماها الطينُ الممزوجُ
بزيت الرغبات

هكذا يرسم الشاعر صورة ثمار هذا الربيع المزعوم والموهوم الذي أتى بسعاة بريد الموت الذين كما يقول: تجلببوا بمعاطف غيم أسود ، وهو تشكيل رمزي أحال فيه الشاعر جلابيب سعادة الموت (غيماً أسود) لتتوافق الدلالة الرمزية مع هذا التشكيل ، ذلك أن الغيم الأسود إنما هو محمل بمطر السوء الذي جاء به سعاة الموت وهم يرفعون سارية الربيع المزعوم الذي ذهب إلى وصفه بالربيع المختنق بدم الزهر لذا يُحيلهُ الشاعر خريفاً ليس كأي خريف إنما هو خريفٌ موسومٌ بكفوف دماء ، أما أشجاره فقد فقدت ماءها فاستحالت أغصانها أغصاناً موحشةً.

لقد استطاع الشاعر أن ينقل لفظ الأشجار بمفهومه المألوف إلى فضائه الشعري الخاص فيحيله رمزاً خاصاً يؤسسُ في فضائه الجديد تشكيلاته الشعرية على وفق تصوره الجمالي ورؤيته الشعرية.

وهكذا رسم لنا صورة الربيع العربي المزعوم على وفق رؤيته الشعرية التي أحالتهُ خريفاً مُوحشاً فقدَ أشجاره وأطياره ، واستحالت صباحاتهُ المؤنقةُ ظلاماً دامساً ، تلفُّ بعباءته ذئابُ الليل المسعورةُ أجسادَها ، طمعاً بالمزيد من الدماء والفناء.

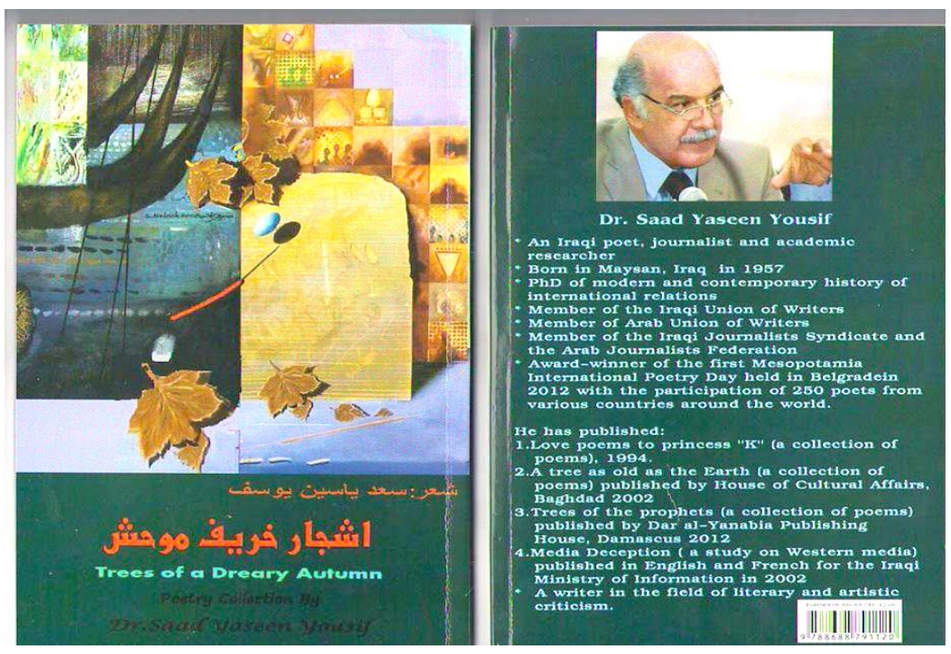

غلاف المجموعة الشعرية